

الفصل الخامس

المناسبات

المناسبات

المناسبات عند العرب قبل الإسلام من الموضوعات الهامة، لما لها من علاقة بالحياة الاجتماعية، فهناك مناسبات عامة وخاصة، مفرحة وم حزنة، أي أن هناك أفراحاً وأتراحاً، شأنهم شأن بقية الشعوب.

فمن الأفراح: الأعياد والمواسم كالخطبة والزواج والحج والختان، وحفلات السمر، وشرب الخمر، والانتصار، في الحرب، والعودة من السفر، ونبوغ شاعر وشفاء من مرض إلى ما هنالك من مناسبات مفرحة، ومن الأحزان: موت أحد الأفراد، وولادة أنثى 000

وبما أن العرب كانوا في جاهليتهم قبائل وشيعاً، فقد صارت المناسبات عندهم كثيرة، غير متفقة في زمان أو مكان، وغالباً ما ارتبطت بالأصنام، وبالمواسم التجارية التي تتفق وانعقاد الأسواق، وحيث أن الموضوع يتعلق بالحجاز فسأورد ما يتعلق بهذه المنطقة من أفراح وأحزان.

♦ أولاً: الأفراح:

1- الحج:

اتصلت نهضة مكة بقيام الكعبة فيها، فاهتم أهلها بالبيت الحرام وعظموه، لأن الحج إليه كان السبب الرئيسي في قيام هذه المدينة وتقدمها إضافة إلى أن موقع مكة كان عاملاً قوياً في ارتفاع شأن البيت الحرام نفسه.

فللحج تقاليد لها علاقة، وأثر كبير في حياة العرب الاجتماعية وكان شاملاً للعرب جميعهم على اختلاف عقائدهم وبيئاتهم، وكان وسيلة من وسائلهم الاجتماعية، حيث وفدوا إلى مكة لزيارة البيت الحرام من كل حدب وصوب، وفي

ذلك مظهر قوي من المظاهر الاجتماعية لأنه تلاقي في ظروف أمن وسلام، فعملت قريش على الإفادة من مكانة الحرم لتقوية مركزها الأدبي لدى القبائل العربية. ولتشجيع تجارتها الداخلية، فأجرت ترتيبات تكفل لها ذلك، كالسقاية⁽¹⁾ لأن مكة حارة شحيحة المياه، وإذا لم تتوفر المياه فيها، عزف الحاج عن القدوم إليها وفي القرآن الكريم ذكر لذلك قال تعالى: ((جَعَلْنَاهُمْ مَخَافَةَ الذَّكَاةِ وَمَخَافَةَ الْمَسْجِدِ الْكَرَامِ كَمَنْ أَمَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ))⁽²⁾

وصنعت قريش الطعام للحجاج، فالموءاكلة من أكبر المحامد في المجتمع العربي وبمناخه عقد جوار، فقام أهل مكة بخدمة الوافدين ضيوف البيت، وهو أمر هام في بيئة فقيرة كبيئة الصحراء وكان كثير من الحجاج يقدم من بلاد بعيدة، ويكابد سفرا طويلا يصعب معه حمل الزاد، وقد حافظت قريش على هذه الوظيفة، ووكلتها إلى البطون الثرية القادرة عليها إذ أن صاحب الرقادة يتحمل جزءاً من ماله الخاص، لذلك كان يعهد بها إلى الرجال الأغنياء⁽³⁾، وقد تولى قصي وظيفه الرقادة بنفسه وتولاها فيما بعد هاشم بن عبد مناف، والمطلب بن عبد مناف، وعبد المطلب والعباس بن عبد المطلب وكلهم من تجار وأثرياء قريش⁽⁴⁾، وأخذت القبائل أثناء ذلك هدنة، فلم تعد ترى غدرا أو اعتداء، أو حرباً، حتى أن الأمن شمل كل شيء الوحش والطير والنبات.

فالحج أروع ظاهرة في شعائره الدينية القديمة وهي:

كلمة جد قديمة على أنه من الممكن أن يكون العمل بمعناها قد جاراها في القدم. ولوحاولنا أن نأخذ بقول الرواة الذين تحدثوا عن مكة والبيت الحرام ومجيء

(1): حياض من آدم كانت على عهد قصي توضع بفناء الكعبة ويسقى فيها الماء العذب من الأبار على الإبل ويسقاه الحاج، أخبار مكة ج 1 ص 110.

(2): سورة التوبة: الآية 19

(3): ابن هشام: السيرة ج 1 ص 143

(4): ابن هشام: السيرة ج 1 ص 143 وما بعد، أخبار مكة ج 1 ص 110 - 111 وما بعد.

إبراهيم لكانت عادة الحج قد سبقت تكون اللغة العربية على ماهي معروفة عليه في الجاهلية⁽⁵⁾. والحج النية والقصد إلى مكة للنسك والحج إلى البيت خاصة⁽⁶⁾.

تقول حججت فلانا إذا أتيته مرة بعد مرة فقل حج البيت لأنهم يأتونه كل سنة ثم تعورف على استعماله في قصد مكة للنسك. ومن المحتمل ان يكون الحج قد ابتدأ منذ عهد إبراهيم وإسماعيل اللذان قاما ببناء البيت الحرام⁽⁷⁾، كما تداولوا خبر حرمة منذ بنائه قال تعالى:

((إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا هَدَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَمِمَّنْ هَدَىٰهٖ وَكَانَ آيَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَكِيمٌ غَفِيرٌ)) (8). وقوله تعالى: ((وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالذِّكْرِ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ))⁽⁹⁾.

فالحج مظهر اجتماعي اقتصادي، اجتماعي لتقاطر الناس كما أسلفنا القول من كل الأنحاء إلى مكة، فيتعارفون وتشهد أواصر الصداقة والقرى بينهم واقتصادي حيث تعقد فيه الأسواق للتجارة، ولتبادل المصالح والسلع وغير ذلك.

لقد أسهمت مواسم الحج الدينية التي كانت في واقعها العملي مواسم تجارية كما كانت في الوقت نفسه مواسم لإنشاد الشعر ولا سيما في سوق عكاظ⁽¹⁰⁾، حيث كان الناس يتبايعون ويتعاكضون أي يتفاخرون، ويتحاجون وتشهد الشعراء ما تجدد لهم⁽¹¹⁾، أسهمت في تنشيط الصناعة والتجارة، وساعدت في صهر اللهجات وتوحيدها في لهجة مشتركة متميزة عن غيرها بكونها لغة التعبير الفني والتعامل المشترك بين مختلف القبائل أثناء الاحتشادات الموسمية التجارية

(5): الميثولوجيا ص 146.

(6): لسان العرب مادة حجج، تاج العروس مادة حجج.

(7): أخبار مكة ج 1 ص 66.

(8): سورة آل عمران: الآية 96، 97. جامع الأصول ج 4 ص 7 وما بعد..

(9): سورة الحج: الآية 27.

(10): الأغاني ج 11 ص 6، أسواق ص 315، علي: المفصل ج 7 ص 382، هبو: تاريخ العرب ص 325.

(11): تاج العروس مادة عكاظ.

والدينية والأدبية، وساعدت في عملية تفكك الوثنية، ومهدت لظهور الاسلام الذي وحد فيما بعد العرب تحت لوائه.

ولهذا اصبح الحج اكبر تظاهرة اجتماعية عربية في تاريخ الجزيرة العربية قبل الاسلام، وفي حقبة الجاهلية الأخيرة خاصة. ومن الممكن ان يكون الحج أيضا إلى بيوت العبادة الاخرى مثل اللات في الطائف⁽¹²⁾.. غير ان الحج إلى كعبة مكة اخذ أهمية خاصة لدى مختلف القبائل بسبب مركزة الأصنام فيها وتنظيم شؤون الحاج إليها، وقيام الأسواق التجارية والأدبية في مكة وما حولها.

وللحج تقاليد وشعائر تجذرت مع مرور الزمن، وانتقلت معظمها إلى الاسلام، مع إجراء بعض التغييرات او التعديلات لتتلاءم مع مبادئه وتعاليمه. تتلخص الشعائر الدينية للحج في "تعظيم البيت، والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة وإهداء البدن، والإهلال بالحج والعمرة"⁽¹³⁾ ولعلمهم كانوا يزورون الكعبة زيارتين رسميتين زيارة حج وزيارة عمرة.

فالعمرة زيارة الكعبة في غير موسم الحج وهي الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة، والفرق بين الحج والعمرة ان العمرة تكون للإنسان في السنة كلها، والحج في وقت واحد في السنة والحج لا يكون إلا مع الوقوف بعرفة يوم عرفة⁽¹⁴⁾ فموقف عرفة من الحج وليس من العمرة. وقد ورد ذكر العمرة في القرآن الكريم قال تعالى: "وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ".....⁽¹⁵⁾.

وكان العرب قبل الاسلام يؤدون العمرة في رجب⁽¹⁶⁾ ثم يطوفون بين الصفا والمروة ولسبعة أشواط، حيث وجد على الصفا والمروة صنما اساف ونائلة، وهما على

(12) ابن الكلبي: الأصنام ص16.

(13) ابن الكلبي: الأصنام ص9

(14) لسان العرب مادة عمر.

(15) سورة البقرة: الآية 196.

(16) الميثولوجيا ص 156.

صورة رجل وامرأة قيل انهما مسخا حجرين لفجورهما بالكعبة، وكان أحدهما ملاصقا للكعبة، والآخر عند بئر زمزم⁽¹⁷⁾، وقد عبدتهما قريش وخزاعة⁽¹⁸⁾.

ولعلنا نجد ان حادثة المسخ أسطورة موضوعية، ومنها يستدل أن المضاجعة في المعبد كانت جارية، وان أسطورة المسخ قد وضعت بعد زوال هذه العادة واستهجانها، لان العادات تتبدل بتبدل الأخلاق، وقد تكون تلك العادة آلت مع تطور الفكر الديني إلى التعري في الطواف حول الكعبة، وكان هذا نوعا من التحمس في العبادة، ولذلك كانت قريش تدعى عند العرب بالحمس⁽¹⁹⁾. ولعلهم أحاطوا ذلك بإطار ديني، وارجعوا الطواف إلى هاجر أو إبراهيم خليل الرحمن، ثم أصبح شعيرة من شعائر الحج، وجاءت الآية الكريمة بقوله تعالى: "أَنِ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ وَأَعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ نَطَوْعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ"⁽²⁰⁾.

ولكن لربما كان ذلك عادة من عاداتهم الاجتماعية فيجتمعون عند الصنم، أو الحجر المؤله معبرين عن فرحتهم باللقاء الديني الاجتماعي. بعد ذلك تأتي التلبية، والوقوف بعرفة وقد كان العرب قبل الاسلام يلبون لألهتهم تلبيات مختلفة فكانت تلبية قريش:

إيـك اللـهـ إيـك لا شـيـك لك نـهـلكـه وما ملك،

وكانت تلبية كنانة

إيـك اللـهـ إيـك الـيـوم الـيـوم النـعـريـف يـوم الدـعـاء والـمـؤـفـوف،

وكانت تلبية أسد:

إيـك اللـهـ إيـك يارب أفـيـك بنو أسـد أهل النـواـذي والوفاء والجلد إليـك⁽²¹⁾

(17) ابن الكلبي: الأصنام ص 9 - 29، ابن هشام: السيرة ج 1 ص 84. أخبار مكة ج 1 ص 119، البداية

والنهاية ج 2، ص 185 - 191، سعد زغلول ص 351

(18) ابن الكلبي: الأصنام ص 29، لسان العرب مادة أسف.

(19) انظر الفصل الأول - الوضع الديني.

(20) سورة البقرة الآية 158

(21) اليعقوبي: تاريخ ج 1 ص 296.

وكانت تلبية نزار:

إليك اللهم إنيك إنيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ما تملكه وما ملك.

وكانت تلبية عك إذا خرجوا حجاجاً قدموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم فكانا أمام ركبهم فيقولون:

نجد غراباً عك فنقول عك من بعدهما عك إنيك كانيك، عبادك اليمانية كما نجد
الثانية⁽²²⁾.

وقد احتفظ الإسلام بالتلبية الجاهلية بعد أن عدل في صيغتها بما يتلاءم وعقيدة التوحيد فصارت على النحو التالي:

"إنيك اللهم إنيك، إنيك لا شريك لك إنيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك"⁽²³⁾.

ومن تقاليد الحج ومراسمه الوقوف بعرفة⁽²⁴⁾، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجة من الظهر إلى وقت الغروب⁽²⁵⁾.

ومن عرفة تكون الإجازة للإفاضة إلى المزدلفة⁽²⁶⁾، أي السماح بمغادرة المكان إلى مكان آخر، وقد روي أن الذين كان لهم أمر الإجازة بالحجيج صوفة وهم حي من مضر في رواية، أو من بني سعد بن زيد مناة في رواية أخرى، وكانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج أي يفيضون بهم⁽²⁷⁾.

فإذا كان يوم النفر أتوا لرمي الجمار⁽²⁸⁾، وتذبح الذبائح كقرايين للآلهة، وكانت العرب قبل الإسلام تقلد الذبائح بقلادة، أو بنعلين يعلقان على رقبة الهدي لتبنيه الناس إلى أنه هدي فلا يجوز الاعتداء عليه، كما كانوا يشعرونه، والأشعار

(22) : اليعقوبي: تاريخ: ج 1 ص 296.

(23) : ابن الكلبي: الأصنام ص 7.

(24) : صحيح البخاري ج 2 ص 561

(25) : قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة ياقوت: معجم البلدان مادة عرفات.

(26) : دلوج 2 ص 283

(27) : اختلف في سبب تسميتها المزدلفة أحد الأقوال الأزدلاف الاجتماع، ياقوت: معجم البلدان مادة المزدلفة.

(28) : ابن هشام ج 1 ص 125 - 126

الإعلام، فيعمدون إلى جرح البدن جرحاً خفيفاً في سنامها حتى يظهر الدم، ويعرف أنه هدي، فأطلق على هذه الذبائح اسم العتائر⁽²⁹⁾، وفي القرآن الكريم إشارة إلى الهدي المقلد أو المجروح في بعض آياته⁽³⁰⁾، على أنه من شعائر الله، ومن واجبات الحاج، وأن له أهمية عظيمة لما فيه من إقامة أود الناس ولا سيما الفقراء والمساكين واليتامى، وقد أرجعوا ذبح القرابين إلى إبراهيم الذي امتحن بذبح ولده إسماعيل قرباناً لله، ففداه الله بذبح عظيم قال تعالى: "وفدينا به بذبح عظيم"⁽³¹⁾.

وبعد ذلك يحلق الحاج شعره إيداناً بانتها مناسك الحج، والتحلل من الإحرام، ولا يكون هذا إلا بعد تقديم القرابين حيث لا يرى الحجاج تماماً لحجهم إلا بتقصير شعورهم، وقد كانت الأوس والخزرج، ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يخلقون رؤوسهم، فإذا نفروا إلى صنم مناة حلقوا رؤوسهم، وأقاموا عنده، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك⁽³²⁾.

وبعد أن يقضي الحجاج مناسكهم، يعقدون المجالس في منى ليتناشدوا الأشعار، وليعددوا مفاخر الأباة والأجداد⁽³³⁾.

فالحج مناسبة من المناسبات الاجتماعية، يتم فيها اجتماع العرب من كافة الإنحاء، يتبادلون أواصر الصداقة والمودة ويشعرون بالأمن والمساواة والطمأنينة، أضف إلى ذلك أن ذبح الذبائح عبارة عن تكافل اجتماعي، فللفقراء نصيب من أموال الأغنياء، وانعقاد المجالس بعد انتهاء مناسك الحج وتناشد الأشعار، وتعداد المفاخر كما سبق ذكره، دليل واضح على أن الحج مظهر ديني واجتماعي فكري،

(29) شاة كانوا يذبحونها لألهتهم في رجب: لسان العرب مادة عتر، وقد ميز جواد علي بين العتيرة التي تذبح

في رجب وبين الضحية التي تذبح في الحج وسماها الهدي، علي: تاريخ العرب ج 5 ص 208

(30) سورة البقرة: الآية 196، سورة المائدة الآية 2، 97. سورة الحج الآية 28 - 36.

(31) سورة الصافات: الآية 107.

(32) ابن الكلبي: الأصنام ص 14، الميثولوجيا ص 155، صباغ: المرأة ص 429

(33) دروزة: عصر النبي ص 327.

ولتنس الفئات الفقيرة التمايز الاجتماعي الذي تعاني منه ضمن قبيلتها في غير موسم الحج.

2. الأسواق:

أقام العرب أسواقا يتبايعون فيها ويشترون، وقد كانت عندهم إما دائمة وإما موسمية مؤقتة، تعقد في شهر معين من السنة، ومنها ما هو محلي أقيم في قلب المدن لتلبية حاجات أهل المدن أنفسهم، والمناطق المجاورة من بدو وحضر، ومنها ما كان يعقد في مكان إقامة قبيلة واحدة أو عدة قبائل.

أما الأسواق الموسمية، فقد كانت عامة يقصدها الناس من شتى أنحاء الجزيرة للبيع والشراء، وكانت تقام في أماكن معروفة وتمتعت بموقع جغرافي توفرت فيه صفات مرغوبة من حيث توفير الماء أو القرب من المدن العامة، أو من البحر لتسهيل عملية الاتجار، وليتمكن التجار الأجانب من الوصول إليها، وقد كانت هذه الأسواق فرصة عظيمة لالتقاء الناس لفض منازعاتهم القبلية من دفع ديّات، وفك أسر، وعقد حلف وجوار، أو خلع سفيه، أو ثأر من قاتل 0000 الخ، وارتادها أناس لم يكن يهمهم البيع والشراء، بل قصدوها للاتصال بالقبائل العربية الممثلة هناك بأعداد وفيرة، و بزعمائها ذوي الرأي والنفوذ، فحاولوا التأثير على بعض الأفراد، وكان يرتادها بعضهم كما قلنا بغية العثور على قاتل أبيه الفار، فيترصد به حتى تنفض السوق، أو يخرج القاتل الهارب منها.

ولذا تلثم فرسان العرب بلثام حتى لا ينكشف أمرهم وحتى لا يتعرف عليه ذوو الثارات فلا يكون لفرسان عدوهم هم غيرهم⁽³⁴⁾، فيقال أن أول عربي كشف قناعه ضريف بن غنم العنبري، ففعلت العرب مثل فعله⁽³⁵⁾.

كان لإقامة الأسواق عند العرب أهداف اجتماعية وأدبية واقتصادية فاحتكاك القبائل بعضها ببعض في هذه الأسواق يخلق التقارب بينها، ويخفف من عداوتها، أضف إلى ذلك أنه اعتبر السوق عندهم موسماً أدبياً ينشد فيه الشعراء ما جادت به

(34) : المحبر ص232، الجاحظ: البيان والتبيين ج3 ص101 حاشية، أسواق ص302 وما بعد.

(35) : اليعقوبي تاريخ ج1 ص315، حسن: حضارة ص95

قرائحهم، ويطرح التجار فيه أيضا بضائعهم بهدف البيع والشراء وتحقيق الأرباح. وقد كانت عكاظ سوقا معروفا للعرب بل من أعظم أسواقهم ومواسمهم، وهو (نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال)⁽³⁶⁾.

يقوم في ذي القعدة، ويستمر عشرين يوما⁽³⁷⁾، وهو من الأسواق المشهورة في الحجاز، اجتمعت فيه صفات أسواق العرب كلها، وتحققت فيه الغايات التي كانت العرب تنشدها.

سوق اجتماع وتجارة وسياسة وأدب. وفدت إليه "قريش وسائر العرب إلا أن أكثرها من مضر"⁽³⁸⁾ فولد احتكاكهم ببعض تحضرا ونموا اجتماعيا وازدهارا اقتصاديا لأن العرب كانوا يجتمعون فيه كل سنة يتبايعون ويتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون⁽³⁹⁾.

كان سوقا للتجارة، لأن التجارة فيه رائجة، والبضاعة تعرض من مختلف الأنواع والمصادر، وسوقا معروفا لبيع الرقيق، وسوقا سياسية، واجتماعية لالتقاء رجال القبائل بعضهم ببعض لقضاء أمور كثيرة من عقد حلف وإعلان جوار، وحرب، وأتصيل إتابة، أو خلع سفية أو إلحاق أحد بنسبه وسوقا أدبية حيث تعرض فيه الأشعار، وآخر ما توصل إليه الشعراء من أدب ومنظومات شعرية، ومعلقات في أنديةهم فيتفق الكثيرون على أحدث ما نظم من الشعر، وللسوق محكمون ضربت لهم القباب، كما جرت العادة الاجتماعية، كالنابغة الذبياني الذي كانت تضرب له قبة من أدم، فيجلس لسماع من يريد أن يفتخر بشعره على غيره، ثم يدلي برأيه الفاصل، وكان الشاعران الأعشى وحسان بن ثابت ممن احتكم إليهم، وكذلك الشاعرة الخنساء⁽⁴⁰⁾، وقد سمي المكان الذي يجتمعون فيه الابتداء، وكان يفد إليه قريش وهوازن وسليم والأحباش والمصطلق، وطوائف من العرب، فمن كان له

(36) : ياقوت مادة عكاظ، تاج العروس مادة عكظ، أسواق ص 286، علي: المفصل ج 7 ص 378.

(37) : تاج العروس مادة عكظ.

(38) : اليعقوبي: تاريخ ج 1 ص 314

(39) : ياقوت مادة عكاظ، لسان العرب مادة عكظ، تاج العروس مادة عكظ.

(40) : الأغاني ج 11 ص 6، أسواق ص 315، علي: المفصل ج 7 ص 382، هبو: تاريخ العرب ص 325.

أسير سعى كما قلنا في افتدائه، ومن كانت له حاجة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة، وكان الذي يقوم بأمر الحكومة في هذه السوق أناس من بني تميم، وكان أحدهم الأقرع بن حابس⁽⁴¹⁾ وعكاظ وما جاورها ديار قيس عيلان عامة، وثقيف وهوازن⁽⁴²⁾ أما تاريخ افتتاحها أو بالأحرى إقامتها فعلى الرغم من إرجاع ذلك إلى ما بعد عام الفيل بخمسة عشر عاماً⁽⁴³⁾، فالجدير بالذكر أن هناك أحداثاً وقعت قبل هذا التاريخ فالشاعر عمرو بن كلثوم أنشد قصيدته المعلقة في عكاظ⁽⁴⁴⁾. وقد عاش في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، وتوفي 584م⁽⁴⁵⁾ مما يدل دلالة واضحة على أن تاريخ وجودها يرجع إلى قبل هذا القرن. وبعد انقضاء سوق عكاظ كانت تقام سوق مجنة التي تقع قرب مكة في أرض كنانة مدة العشرة أيام الأخيرة من ذي القعدة⁽⁴⁶⁾. ثم يرحلون إلى المجاز في الأيام الأولى من ذي الحجة حتى الثامن منه⁽⁴⁷⁾ وهذه السوق تلي سوق عكاظ في الأهمية، وهي من أسواق العرب الكبرى وهي لهذيل على يمين الموقف من عرفة قريبة من كبكب على فرسخ من عرفة⁽⁴⁸⁾. فعكاظ ومجنة وذو المجاز أسواق كانوا يتجرون بها في الجاهلية أيام المواسم.

(41) :صبح الأعشى ج 1 ص 410، وما بعد، أسواق ص 291، هبو: تاريخ العرب ص 326، شلبي: المجتمع العربي قبل الإسلام ص 92
(42) : أخبار مكة ج 1 ص 190، شفاء الغرام ص 283، أسواق ص 288، شعراء النصرانية ص 212 هبو: تاريخ العرب ص 326.

(43) :الرافعي (مصطفى صادق) تاريخ آداب العرب مطبعة الأخبار بمصر 1329 هـ، 1911 م ج 1 ص 85 يختصر إلى رافعي: تاريخ آداب العرب، أسواق ص 342 حاشية على خلاف في تاريخ إقامتها، علي: الفصل ج 7 ص 380 الفيل 570 + 15 = 585
(44) :الأغاني ج 11 ص 54

(45) :المرزباني: معجم الشعراء ص 202، الزركلي: الإعلام ج 5 ص 256
(46) : أخبار مكة ج 1 ص 188 - 190، ياقوت مادة مجنة، أسواق ص 345 هبو: تاريخ العرب ص 323.
(47) : أخبار مكة ج 1 ص 188، المحبر ص 267، هبو: تاريخ العرب ص 323
(48) : أخبار مكة ج 1 ص 190، ياقوت مادة مجاز، أسواق ص 347، وكبكب جبل خلف عرفات ياقوت مادة كبكب.

وكادت أن تكون قسما من أعمال الحج ذاته، حتى أن قريشا وغيرها من العرب تقول: لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذئ المجاز إلا محرمين بالحج، وكانوا يعظّمون أن يأتوا شيئا من المحارم أو يعدّو بعضهم على بعض في الأشهر الحرم وفي الحرم⁽⁴⁹⁾.

أثرت هذه الأسواق تأثيرا بعيدا في جميع الميادين، وكانت أساسا لإقامة علاقات إنسانية تحفظ حقوق الإنسان في إطار حياة القرن السادس الميلادي، وكانت تدور حول إصلاح المجتمع،

على أن هناك أسواقا محلية، ولكن ليس لها الشهرة نفسها، كسوق بدر قرب يثرب⁽⁵⁰⁾، وسوق زباله، وسوق الجسر، وسوق الصفا صيف ومزاحم في يثرب أيضا⁽⁵¹⁾.

3- الأعياد:

العيد أسم يجمع أمورا كثيرة منها كل يوم فيه جمع اشتقاقه من العادة لأنهم اعتاد وهو العيد عند العرب الوقت الذي يعود فيه الفرح بعد الحزن قال ابن الأعرابي: سمي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد ولأنهم قد اعتادوه⁽⁵²⁾. أي أن العيد اجتماع يجتمع فيه الناس ليقوموا بأعمال معينة⁽⁵³⁾. وعبادات مختلفة فكيف كان العرب قبل الإسلام في الحجاز يستقبلون أعيادهم بالطبع اختلفت مراسم الأعياد من فئة إلى أخرى قال تعالى: "وكل أمة جعلنا منسكا"⁽⁵⁴⁾.

فقريش مثلا: اجتمعت يوما في عيد صنم كانوا يعظّمونه، وينحرون له، ويعكفون له، ويدينون به، وكان ذلك عيد لهم في كل سنة⁽⁵⁵⁾.

(49): أخبار مكة ج 1 ص 192

(50): الصفة ص 332

(51): سمهودي ج 2 ص 747

(52): ابن زكريا: معجم مقاييس اللغة مادة عود، لسان العرب مادة عود، تاج العروس مادة عود.

(53): الواسي ج 1 ص 344، حسن: حضارة ص 153

(54): سورة الحج: الآية 67. تفسير ابن كثير ج 3 ص 234. 222

(55): الواسي ج 1 ص 346، شلبي: المجتمع العربي قبل الإسلام ص 53

وبما أن لكل حاضرة صنما تعظمه كالكالات لأهل الطائف والعزى لأهل مكة ومناة لأهل المدينة، فقد وجدت مواسم معينة من السنة مخصوصة للاجتماع في هذه الأماكن، يقصدونها من كل فج عميق، ويطوفون بها وينحرون عندها، وكان لها سدة وحجاب⁽⁵⁶⁾.

والأعياد منها زمانية، وكان ذلك لقوم دون قوم، وقبيلة دون أخرى، وهي أيام مسراتهم وأفراحهم بظفرهم على عدوهم ونصرتهم على خصومهم، ومحاربيهم، فهناك عيد معروف بالحجاز أطلق عليه يوم السباسب، وقد ورد في الحديث: أن الله أبد لكم يوم السباسب يوم العيد⁽⁵⁷⁾. وقد ذكره النابغة بقوله⁽⁵⁸⁾:

رقاق النعال طيب حجراتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

وذكر أنه كان لأهل يثرب يومان يعبدون فيهما، يلعبون ويستأنسون هما النيروز والمهرجان، فلما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم للمدينة أبدلها بيوم الفطر والأضحى⁽⁵⁹⁾. وقد صممت الأخبار عن الكيفية التي كان أهل المدينة يحتفلون بها بهذين العيدين.

والعادة أن يتزين المرء في أيام الأعياد بأحسن الثياب والملابس الفاخرة، والحلل المثمنة، والبرود ويلعب الصبيان جميع أنواع الملاعب، منهم من يغني ومنهم من يزمر بالدفوف والمزاهر، ومنهم من يقول الأراجيز، ومنهم من ينشد الشعر 000 وذلك كي تكسب الأيام بهجتها وروعتها، وقد برع في الغناء نساء ورجال واستخدموا الحبش للضرب على الدف والغناء في أيام الأعياد⁽⁶⁰⁾.

(56) ابن الكلبي: الأصنام ص 13-16-27

(57) لسان العرب مادة سباسب: تاج العروس مادة سباسب، علي: المفصل ج 5 ص 102

(58) البستاني (كرم) ديوان النابغة النبطي، دار صادر، دار بيروت 1383 هـ، 1963 م ص 12 يختصر إلى ديوان النابغة، لسان العرب مادة سباسب، تاج العروس مادة سباسب، الواسي ج 1 ص 348، حسن: حضارة ص 154، والحجرة موضع التكة من السراويل. ديوان النابغة ص 12 حاشية.

(59) صبح الأعشى ج 2 ص 416 وما بعد، الواسي ج 1 ص 364، علي: المفصل ج 5 ص 101

(60) نهاية الأثر ج 4 ص 138-148 وما بعد، علي: المفصل ج 5 ص 105

ولقد تغنى فتيانهم الحداة في رعي ابلهم، وفي فضاء خلواتهم فرجعوا الأصوات، وترنحوا واستمروا على هذه الحال في بداوتهم وجاهليتهم قال ابن خلدون: "وكانت البداوة أغلب نحلهم، ثم تغنى الحداة منهم في حداء ابلهم، والفتيات في قضاء خلواتهم، فرجعوا الأصوات، وترنموا وكانوا يسمون الترتم إذا كان بالشعر غناء وإذا كان بالتهليل أنواع القراءة تعبيرا 000

وكان أكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار 000 ولا بد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم، شأن البسائط كلها في الصنائع، ولم يزل هذا شأن العرب في حياتهم كلها⁽⁶¹⁾.

وكانت يثرب - المدينة أحد مواطن الغناء الرئيسية في الجاهلية العربية، فأهلها أهل طرب وكانوا يحبون الغناء⁽⁶²⁾. وكان الغناء منتشرًا أيضًا في مكة وخاصة في فترة الجاهلية الأخيرة، وكان يمارسه الحرائر من نساء قريش والقيان الأجنبية واستمر ذلك إلى بعد الإسلام فهند بنت عتبة ونسوة من قريش كن يضرين على الدفوف في غزوة أحد⁽⁶³⁾. ولعلنا نجد أن القيان كن حجر الزاوية في إحياء الحفلات وقد امتلك عبد الله بن جدعان أحد أثرياء ونخاسي مكة قينتين عرفتا بجرادتي عاد تشبها بجرادتي معاوية أمير العمالقة، وهبهما إلى أمية بن أبي الصلت⁽⁶⁴⁾. وجاراهم أهل المدينة في ذلك فضي إحدى المرات أمروا أحد القيان أن تغني النابغة بشعر فظهر فيه إقواء⁽⁶⁵⁾. وعلى ما يظهر أن امتلاك القيان ووجودهن في بيوت الترف والعز مظهر من المظاهر الاجتماعية آنذاك، ولقد كان لعائشة جاريتان تغنيان بغناء يوم بعث⁽⁶⁶⁾.

(61) : ابن خلدون: المقدمة ص 427

(62) : نهاية الأرب ج 4 ص 139، علي: المفضل ج 5 ص 105.

(63) : ابن هشام: السيرة ج 3 ص 72، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 512 والكامل في التاريخ ج 2 ص 153.

(64) : الأغاني ج 8 ص 324، لسان العرب مادة جرد، تاج العروس مادة جرد.

(65) : الأغاني ج 11 ص 10، الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي ص 447

(66) : سنن ابن ماجه ص 326، لسان العرب مادة غنا، علي المفضل ج 5 ص 118

ومن المألوف أن يرافق الطرب الرقص، فهي غريزة في طباع الناس عامة وهولا يحتاج إلى حضارة ومدينة، بل هو حركات جسمية يعبر بها الراقص عن نزعاته وخلجات نفسه بالتصفيق والضجيج والصياح وضرب الأرجل، وقد كان الرقص تعبيرا طبيعيا عن الفرج كما كان أيضا تعبيرا عن العبادة والشكر لئله.

ولم يبق الغناء الجاهلي بسيطا محافظا على تقاليده وموازينه البدائية إنما تطور مع تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وأدخلت إليه عناصر وتقنيات وموازن جديدة، أدت إلى تكوين شكل جديد من الحداثة أكثر تحسينا واتقاناً هو النصب والسناد والهزج، فالنصب غناء الركبان والفتيان وهو الذي يستعمل في المراثي. وكله يخرج من أصل الطويل في العروض، وأما السناد فالثقل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات، وأما الهزج فالخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم⁽⁶⁷⁾. وقد كان هذا غناء العرب حتى جاء الإسلام.

من الطبيعي أن يقترب الغناء بالشعر، فعندما نقرأ أية مقطوعة شعرية قديمة، نشعر بتلك النغمة التي تنطلق منها حتى أن تلييتهم أثناء الحج لها نغمة موسيقية معينة، فاستخدموا الغناء في عباداتهم تعبيرا عن بهجتهم وسرورهم بتعبدهم للآلهة وتقربا إليها بهذا الغناء الذي يدخل السرور إلى نفوسهم، فكانوا يطوفون بالبيت يصفرون ويصفقون لأن الحج عندهم عيد ففي أثناء الإفاضة، إلى متى كان الحجاج ينشدون مقطوعات حفظت لنا واحدة منها هي: "أشرق ثبير كيما نفي⁽⁶⁸⁾".

وقد أفضى تطور التشكيلات الاجتماعية إلى ظهور مغنين محترفين أمثال النضر بن الحارث من الحجاز قال المسعودي: "قدم النضر بن الحارث بن كلدة من العراق وافدا على كسرى بالحيرة فتعلم ضرب العود والغناء عليه، فقدم مكة، فعلم أهلها فاتخذوا القينات⁽⁶⁹⁾".

(67) ابن رشيقي: العمدة ج 2 ص 241، حسن: حضارة ص 160، الصمد: الصناعات والحرف ص 334.

(68) ياقوت: معجم البلدان مادة ثبير. وثبير جبل بمكة.

(69) مروج الذهب ج 4 ص 134

4 - نبوغ شاعر:

كانت العرب تقيم الشعر مقام الحكمة وكثير العلم، فإذا كان في القبيلة الشاعر الماهر المصيب المعاني المنتقي الكلام أحضره في أسواقهم التي كانت تقوم لهم في السنة، ومواسمهم عند حجهم البيت حتى تقف وتجتمع القبائل والعشائر فتسمع شعره، ويجعلون ذلك فخراً من فخرهم وشرفاً من شرفهم ولم يكن لهم شيء يرجعون إليه في أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر فيه كانوا يختصمون وبه يتمثلون وبه يتفاضلون وبه يتقاسمون وبه يتفاضلون وبه يمدحون ويعابون⁽⁷⁰⁾.

فمن الطبيعي أن يحتفل العرب بنبوغ شاعر في القبيلة حيث تُقبل القبائل الأخرى لتهنئتها وتصنع في هذه المناسبة المفرحة الأطعمة ويجتمع النساء يلعبن بالزهور كما يصنعون في الأعراس ويتباشرون الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذبح عن أجسادهم لأحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكورهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج⁽⁷¹⁾.

فالشاعر أرفع قدراً من الخطيب، وهم إليه أحوج⁽⁷²⁾ وقد نبغ الكثير من الشعراء كأمية بن الصلت من ثقيف⁽⁷³⁾، وقيس بن الخطيم⁽⁷⁴⁾ وحسان بن ثابت شاعر الخزرج، وكان أشعر أهل يثرب⁽⁷⁵⁾. فهل كان الشعر صنعة؟ بالطبع كان الشعر أدباً وفكاهة ومرؤة ومكافأة وشكراً وثناء⁽⁷⁶⁾. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أن من البيان لسحرا وأن من الشعر لحكماً⁽⁷⁷⁾.

(70) :اليعقوبي: تاريخ ج 1 ص 304

(71) : ابن رشيق: العمدة ج 1 ص 37، آلوسي ج 3 ص 84، شريف ص 26، حسن: حضارة ص 159 علي: المفصل ج 9 ص 110-111.

(72) :البيازوالتبين ج 3 ص 399، ابن رشيق: العمدة ج 1 ص 50

(73) : الأغاني ج 4 ص 122، التبريزي: ديوان الحماسة ج 1 ص 314، علي: المفصل ج 9 ص 752

(74) : الأصمعيات ص 226، علي: المفصل ج 9 ص 724.

(75) : الأغاني ج 4 ص 134 علي: المفصل ج 9 ص 729.

(76) : ابن رشيق: العمدة ج 1 ص 12 - 49

(77) : العقد الفريد ج 6 ص 123، ابن رشيق: العمدة ج 1 ص 9 وعلي: المفصل ج 9 ص 64.

وللشعر أثر خطير في نفوس العرب، كان يهز عواطفهم هذا، وكان يفعل فيهم فعل السحر، فهو سلاح ماض عند العرب والشاعر لسان القبيلة والشعر ديوان العرب⁽⁷⁸⁾.

ولعل الشعراء كانوا يرون أنفسهم فوق الناس في الفطنة والفهم، وأن الناس كانوا يرون هذا الرأي فيهم، لما يجدونه فيهم من فطنة وذكاء⁽⁷⁹⁾ ولكن لاشك أنهم كانوا على درجات متفاوتة في الإدراك وفي مجتمعهم من هو أرقى منهم عقلاً، وأكثر منهم إدراكاً، ومع ذلك لا يقولون الشعر، أولاً يمارسونه كالحكام والكهنة وأصحاب الآراء.

وقد رأينا أن عكاظ كان موضع تحكيم في شعر الشعراء الجاهليين، وأن النابغة كان حاكم سوق عكاظ، أضيف إلى ذلك تنقل الشاعر بين القبائل، مما كان له أعظم الأثر في الحياة الاجتماعية وفي كافة نواحي الحياة، وأقبل الشعراء على شرب الخمر إقبال أكثر الجاهليين على شربها. لتسيهم همومهم وفقرهم، وكانوا يشربونها ليستوحوا من الشرب⁽⁸⁰⁾ الكلمات الشعرية المناسبة.

5 - الخطبة والزواج⁽⁸¹⁾:

6. الختان:

من التدابير الصحية التي تتبعها الأم، ويسعى إلى تحقيقها الأب الختان وهو القطع⁽⁸²⁾. إلا أن العرب في الحجاز لم يختنوا الفتى فقط، بل عملوا على ختان

(78) : الأغاني ج 1 ص 11، ابن رشيقي: العمدة ج 1 ص 11، فجر الإسلام ص 57، سالم ص 40

(79) : ابن رشيقي: العمدة ج 1 ص 74، علي: المفصل ج 9 ص 78.

(80) : ابن رشيقي: العمدة ج 1 ص 141، علي: المفصل ج 9 ص 118

(81) : بحث هذا الموضوع في فصل الأسرة.

(82) : لسان العرب مادة ختن

الفتيات، وذلك للحد من طغيان الشهوة⁽⁸³⁾ فكان يقطع بظرهن، ويطلق على من تقوم بهذه المهمة أسم الخاتنة أوالمبظرة أوالخافضة⁽⁸⁴⁾.

وكانت عبارة عن مهنة ترتزق منها بعض النساء، ولكن بالمقابل كانت مهنة غير محببة، ومذمة للرجل، فيعير بأن أمه مقطعة البظر.

ويقال له ذما: يا ابن مقطعة البظر⁽⁸⁵⁾. وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم الخافضة بقوله: إذا خففت فاشمي⁽⁸⁶⁾ ولا تنهكي⁽⁸⁷⁾، فإنه أحسن للوجه، وأرضى للزوج⁽⁸⁸⁾. وبالمقابل فإن الختان بالنسبة للصبي من العادات الجاهلية القديمة المفرحة التي احتفلت بها الأسرة، وأولت الولائم (الأعذار)⁽⁸⁹⁾ دعت إليها الأهل والأصحاب، فلبس الطفل المختون أجمل ثيابه، وظهر بأبهج صورة ولبس أصدقائه كذلك الثياب الجميلة، وظهر الجميع بصورة رائعة، فهل هناك سن معينة للختن؟ بالطبع لم يحدد العرب السن التي يختن بها الصبي، قد يجري الختن بعد أسبوع، أو بعد شهر أو أكثر من الولادة، وقد يتأخر إلى العاشرة أو أكثر من عمر الصبي⁽⁹⁰⁾.

ولكن لا بد من الختن فمن لا يختن يعتبر ناقصا، ويدعى أغلف أوأقلف أو أغرل وقد كان الختن من الصفات التي تميز بها الوثنيون عن غيرهم، وهم واليهود في ذلك سواء⁽⁹¹⁾.

وقد جاء في التوراة "وقال الله لإبراهيم وأنت فاحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك مدى أجيالهم هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك

(83) : جواد: المفضل ج4 ص637

(84) : لسان العرب مادة ختن، خفض، بظري

(85) : تاريخ الرسل والملوك ج2 ص516، الكامل في التاريخ ج2 ص156، لسان العرب مادة بظر.

(86) : خذي منه قليلا، لسان العرب مادة شمم

(87) : لا تبالغي في استقصاء الختان ولا في اسحات مخفض الجارية لسان العرب مادة نهك.

(88) : البيهقي ج2 ص21، لسان العرب مادة شمم، علي: المفضل ج4 ص638 ترماني: الزواج عند

الجزيرة ص226.

(89) : الوليمة في الأعذار: أي من أسماء الختان لسان العرب مادة عنر،

(90) : الإلوسي ج1 ص386، علي: المفضل ج4 ص654، صباغ: المرأة ص98

(91) : علي: تاريخ العرب ج6 ص296 - 297

يختن كل ذكر منكم فتختنون القلفة من أبدانكم ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم⁽⁹²⁾

عد الختان في الإسلام من سنن الفطرة التي ابتلى الله إبراهيم بها وهي الكلمات العشر وفي جملتها الختان⁽⁹³⁾ قال النبي صلى الله عليه وسلم: اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة 00 بالقدوم والقدوم هو الالة وقيل موضع⁽⁹⁴⁾.

والختان بالأصل نوع من أنواع العبادة الدموية التي يقدمها الإنسان إلى أربابه، فهي تضحية ذات شأن خطير في عرف أناس ذلك العهد⁽⁹⁵⁾ إلا أننا نرى الختان نوع من أنواع النظافة وسنة متبعة، وبالمقابل كانت الغاية من الختن في العصر الجاهلي اجتماع الأصحاب والأصدقاء وإقامة الأفراح والاجتماعات وتقديم الولائم تعبيرا عن البهجة والسرور، والمكانة التي يرقى إليها الذكر دون الأنثى.

7- العودة من السفر:

من أيام الفرح والسرور، أيام العودة من السفر، ومن حقهم أن يفرحوا ويحتفلوا بهذا اليوم ألم يكن السفر مشقة وعناء وخطورة قد يتعرض المسافر للافتراس من قبل وحوش البادية.

أوقد يهلك جوعا وعطشا في صحراء قاحلة، أوقد يتعرض للسلب والنهب، فلذلك كان السفر على شكل جماعات وقوافل ولم يكن على شكل إفرادي كما عرفنا في فصل سابق ولذا كان الأهل يتلقون المسافر بالبشر والتهنئة، فتذبح الذبائح وتولم الولائم التي تسمى النقيعة⁽⁹⁶⁾.

(92) سفر التكوين: الفصل 17 فترة 1- 11

(93) الجاحظ: الحيوان ج 7 ص 27

(94) البداية والنهاية ج 1 ص 157

(95) علي: المفصل ج 4 ص 653

(96) لسان العرب مادة نفع، اللوسي ج 1 ص 386، علي: المفصل ج 4 ص 685

ويقدم المهنئون تهنيتهم، ويقولون سفر رجيح، وكان أول شيء يفعله المسافر عند عودته هو الطواف بالبيت، وبالصنم، الذي يعبد، وشكر رب البيت على حمايته له، وإغداقة نعمته بالعودة سالماً⁽⁹⁷⁾. وإذا أرادوا السفر عمدوا لجزر الطير⁽⁹⁸⁾ والاستقسام بالازلام⁽⁹⁹⁾ وإذا ما عزموا على السفر أوقدوا نارا بينهم وبين المنزل الذي يريدونه ولم يوقدوا بينهم وبين المنزل الذي خرجوا منه تفاؤلاً بالرجوع إليه⁽¹⁰⁰⁾.

8- الشفاء من مرض:

هو عودة إلى الحياة، وولادة من جديد في مجتمع عرف النذور والهدايا إلى الأنصاب والازلام والتوسل إلى الآلهة للشفاء أكثر من معرفته بالطب والدواء لأنهم آمنوا أن الآلهة هي التي تشفي فلذلك إذا مرض أحدهم، وشفي فإنهم يقيمون له الأفراح والولائم التي تسمى البلة⁽¹⁰¹⁾، هذا النوع من المناسبات يدل على العلاقة المتبادلة بين أفراد القبيلة الواحدة وفئات المجتمع.

9- الخمر واستباحة النساء:

شاع في المجتمع الحجازي قبل الاسلام آفات اجتماعية، اقبل الناس عليها لقتل فراغهم، وللبحث عن أشياء تسليهم وتلهيهم، وتبعث فيهم الأمل والطرب والنشوة، ولكنهم أفرطوا في ذلك. فالخمر من متع الحياة الثلاث بالنسبة للشباب، ولكن الإدمان عليه أهلكهم، فالخمرات كانت منتشرة في كل مكان ولا سيما على الطرق، حيث ينزل بها المسافرين للاستراحة واستعادة النشاط بعد تعب وجهد، وكان بمكة وسائر القرى خمرات، وكان أصحابها من النصارى واليهود في الغالب ومعظمهم من غير العرب

(97) ابن هشام: السيرة ج1 ص85، البداية والنهاية ج2 ص191-192، علي المفضل ج5 ص131.

(98) التيمن والتشاؤم بها والتفاؤل بطيرانها، لسان العرب مادة زجر.

(99) السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها لسان العرب مادة زلم.

(100) الوسي ج5 ص324.

(101) العافية والشفاء لسان العرب مادة بلل.

وفدوا من الخارج للتكسب والعيش، فامتنوا مهنة بيع الخمر واسقائها للناس⁽¹⁰²⁾، وقد عرفت الخمار بالحنوت فقد ورد أن الخليفة عمر رضي الله عنه أحرق بيت رويشد الثقفي وكان حانوتا يعاقر فيه الخمر ويبيع⁽¹⁰³⁾.

وتفنن الأغنياء في الشرب، فاستعمل عبد الله بن جدعان الأواني المصنوعة من الذهب في شربه، وشرب غيره من أصحاب الثراء بأواني غالية استوردها من الخارج، في الوقت الذي كان فيه أكثر سكان مكة فقراء لا يملكون شيئاً.

كما أنهم اعتبروا أن شرب الخمر دلالة على الفرح والسرور، لذلك حرم البعض شربها إذ أصابته مصيبة كامرؤ القيس الذي ابتعد عن شرب الخمر والنساء، وآلى ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً، ولا يدهن بدهن طيب، ولا يقرب النساء حتى يدرك بثاره لأبيه⁽¹⁰⁴⁾.

أضف إلى ذلك أن بعضهم ترك شرب الخمر عندما بلغت به مبلغاً أنه يفعل أشياء مشينة عندما يشربها، دون أن يدري كعبد الله بن جدعان، وحاتم الطائي، وبشير الثقفي⁽¹⁰⁵⁾.. وتركها بعضهم تحنفاً، ثم أتى تحريمها في الإسلام، وجعل مدمن الخمر كعابد الوثن⁽¹⁰⁶⁾.

ثانياً: الأحزان:

للحياة وجهان البياض والسواد، سرور وشقاء، فرح وحزن، وبما أننا تحدثنا عن الوجه الأول من الحياة وهو الفرح وما كان يفعله أهل الحجاز فيها، فلا بد من التحدث عن الوجه الآخر، وهو الأتراح والأحزان وما كانوا يفعلون أيضاً عند نزول كارثة ما، أو وقوع حادث مفاجئ لهم.

(102) علي: المفصل ج4 ص667.

(103) لسان العرب مادة حنت.

(104) انظر فصل عادات قبلية والكلام عن الثأر.

(105) المحبر ص237، علي: المفصل ج4 ص671.

(106) لسان العرب مادة دمن.

شغل الحزن دورا كبيرا في الحياة، حتى إننا لنستطيع القول: أن الحزن أظهر من الفرح في الحياة، وأن المبالغة في إظهاره من المظاهر البارزة في المجتمع، وذلك إما ليظهر الحزين نفسه أنه أكثر الناس تحملا للمصائب والأهوال والنكبات، وإما لبيان قيمة الشيء المفقود وشدة الأسى عليه. ففقدان إنسان غال، أو فقدان مال بعد ثراء وجاه، وأمثال ذلك مما يثير الأشجان والحزن في النفس، تجعل الإنسان في لوعة على ما أصابه، فيظهر جزعه وتحمله للآلام أمام الناس وذلك بمختلف أساليب التعبير عن الحزن الذي نزل بالحزين.

وللحزن مصطلحات وتعابير خاصة، تعبر عن الآلام والأحزان، وما يجيش في الصدر من الأحزان، ومنها تعابير يستخدمها المحزون نفسه تعبيرا عن حزنه وآلامه الشديدة ومنها تعابير يستخدمها المحزون في الرد على من يواسيه للتخفيف من آلامه، ومنها تعابير يقولها المواسون للشخص المحزون للتخفيف من مصابه، والترويح عنه، ولإظهار حزنه، ومشاركته لآل المحزون في أحزانهم. وكما أن للفرح مراسم، ولباس معين، كذلك للحزن عادات وتقاليد، وعلامات متبعة لا بد من مراعاتها، والمحافظة عليها.

1- الموت:

الموت في نظر الجاهليين مفارقة الروح للجسد لسبب من الأسباب التي تؤدي إلى هلاكه، فتخرج الروح من الأنف أو من الفم، وذلك في الموت الطبيعي، وفي موت الفجاءة. أما إذا كان الموت بسبب جرح فإن الروح تخرج على ما ذكر من الجرح⁽¹⁰⁷⁾. والروح قد تتحول، وتصير طائرا يرفرف فوق قبر الميت يسمى هامة في حالة كون الميت⁽¹⁰⁸⁾ قتيلا ويكون الإعلان عن موت شخص بالبكاء والنعي كما هي اليوم. يتوقف نعي الميت، والبكاء عليه على قدر منزلة الميت، ودرجة أهله، ومكانتهم الاجتماعية، لأن نعي الميت من وسائل التقدير والإكرام والتبجيل، وقد وردت كلمة الناعي كثيرا في الشعر وفي النثر⁽¹⁰⁹⁾:

(107) لسان العرب مادة حتف.

(108) انظر فصل عادات قبلية وفقرة الثار.

(109) اللوسى ج3 ص13

أقول لما آتاني الناعيان به لا يعد الرمح ذوالنصلين الرجل

ولذلك كانوا يوصون أهلهم بالبكاء، والنوح عليهم. إذا ماتوا، وكان ذلك مشهورا في مذاهبهم، وهو موجود في شعرهم كقول طرفة بن العبد⁽¹¹⁰⁾ :

فإن مت فأنعيني بما أنا أهله وشقي علي الحبيب يا ابنة العبد⁽¹¹¹⁾

وكقول لبید لابنتيه لما حضرته الوفاة⁽¹¹²⁾ :

تمني ابتنائي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة ومضر ؟

فقوموا وقولا بالذي تعلمانه ولا تخمشا وجهها ولا تحلقا شعر

وقولا: هو المرء الذي لا صديقه أضاع ولا خان الأمين ولا غار

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتنر

ولما حضرت الوفاة عبد المطلب، وعرف أنه ميت جمع بناته وكن ست نسوة صفية، وبرة، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء، وأميمة، وأروى، فقال لهن: ابكين علي حتى اسمع ما تقلن قبل أن أموت، فرثته كل واحدة منهن ببعض الآيات من الشعر منها:

آلا يا عين جودي واستهلي ويكي ذا الندي والمكرمات

آلا يا عين ويحك أسعفيني بامع من دموعها طلات

⁽¹¹⁰⁾ التبريزي: شرح القصائد العشر ص 196، الألوسي ج 3 ص 11 زورني: شرح المعلقات ص 99، علي: المفضل ج 5 ص 153، الجندي (علي) ديوان طرفة بن العبد، مكتبة الانجلو المصرية ص 62 يختصر إلى ديوان طرفة.

⁽¹¹¹⁾ الأغاني ج 15 ص 379، الألوسي ج 2 ص 11، علي: المفضل ج 5 ص 154 - 155

⁽¹¹²⁾ ابن هشام: السيرة ج 1 ص 181، السهيلي: الروض الأنف ج 1 ص 197.

ويكى خير من ركب المطايا أباك الخير تيار الفرات

طويل الباع شبيهة ذا المعالي كريم الخيم محمود الهبات

عقيل بني كنانة والمرجى إنا ما لاهر أقبل بالهنات

وذكروا أن الشاعر حازم بن أبي طرفة، وأبو طرفة الحارث بن قيس بن يعمر الشداخ الكناني، وهو شاعر جاهلي أوصى ابنته لما شعر بدنو أجله بأن تبكي والدها، وأن تندبه، وتذكر محامده وفعاله، وذلك في هذين البيتين⁽¹¹³⁾:

بنية أن الموت لا بد لاحق بشيخك ماضي الأنعام المودع

فإن قمت تبكي بني فقولني أبو الندى ومأوى رجال بائسين وجوع

من هذه الأبيات نرى أن النياحة، وخمش الوجوه، والتوجع والتألم، وأمثال ذلك سمة من سمات التقدير والاحترام والتعظيم للميت بل للأحياء من آله وأقربائه أيضا، لأنها دلالة على شدة تألمهم، وإيلاهم أنفسهم، وتوجيع أجسامهم وهلاكهم لذهاب فقيدهم، وعدم مبالاةهم في الإنفاق والبذل في سبيله.

ويصحب البكاء شق الجيوب، وتعفير الرأس بالتراب واجتماع النسوة أياما لندب الميت، وذكر مناقبه، تقوم بذلك نادبات متهنات أو غيرهن ممن رزقن موهبة القول في مثل هذه الأحوال من أفراد الأسرة أو القبيلة أو الحي. أو القرية، وقد برئ الرسول صلى الله عليه وسلم من الصالقة⁽¹¹⁴⁾ والحالقة والشاققة⁽¹¹⁵⁾.

(113) الأمدى (أبي القاسم الحسن بن بشر) المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، مكتبة المقدسي 1354 هـ ص 100 يختصر إلى المؤلف والمختلف.

(114) الصالقة من الصلق الصياح والولولة والصوت الشديد يرفع عند المصائب وعند الموت ويدخل فيه النوح لسان العرب مادة صلق.

(115) صحيح مسلم ج 1 ص 82 - 100

ومدة الرثاء قد تطول حتى تستمر حولا كاملا، وهي مدة عزاء الجاهلية كما وجدنا في شعر لبيد، فإذا ما انتهى الحول وقد بكوه البكاء الذي استحقه الميت عذر أقرباءه من الاستمرار في بكائه إلا في المناسبات. أما مدة المناحة فهي في العادة سبعة أيام، فلما مات زيد الخيل الشاعر الفارسي وهو في طريقه إلى دياره أقام قبضة بن الأسود المناحة سبعة أيام⁽¹¹⁶⁾، هذا إذا كان الموت طبيعيا، أما إذا كان قتلًا فلا يقبل أهل الميت التعازي إلا إذا ثأروا للقتيل⁽¹¹⁷⁾.

أما بالنسبة للجنائز، فقد احترموا الموت والميت، فإذا مرت بهم جنازة، ورأوها قالوا: كنت في أهلك مائتا مرتين، أما أهل الميت وأقرباؤه وأصدقاؤه، فكانوا يسيرون أمام الجنازة وخلفها إلى المقبرة وذلك فيما كانوا يدعون من أن روح الإنسان تصير طائرا مثله، وهو المشهور عندهم بالصدى والهام.

وكانوا يحملون النار أثناء سيرهم مع الجنازة، وينحرون الجذور عند القبور، وهذا ما قام به عمرو بن العاص عندما أوصى أهله بنحر الجذور على قبره، وتوزيع لحمها على المحتاجين، والإقامة حول قبره حتى يستأنس بهم وينظر ماذا يراجع به رسل ربه⁽¹¹⁸⁾، ولما جاء الإسلام نهى عن ذلك بالحديث الشريف "لا عقر في الإسلام ولا فرع ولا عتيرة"⁽¹¹⁹⁾.

أما بالنسبة لحمل النار فله مسوغات عديدة، فإما للتتوير أمام الميت، أو للتفاؤل له بالجنة، أو عبرة للأحياء في أن النار الشديدة الحرارة بالمرصاد لمن يرتكب الأثام والذنوب. وكان من عادة العرب إذا حيوا الميت، قدموا لفضلك والمعنى عليه تحية الله ورحمته قال الشاعر⁽¹²⁰⁾:

⁽¹¹⁶⁾ الأغاني ج 17 ص 249، علي: المفصل ج 5 ص 172، صباغ: المرأة ص 215

⁽¹¹⁷⁾ انظر فصل أعراف ومثل قبلية فقرة الثأر.

⁽¹¹⁸⁾ علي: المفصل ج 5 ص 156، علي: تاريخ ج 5 ص 284.

⁽¹¹⁹⁾ صحيح مسلم ج 1 ص 112، 113، علي: المفصل ج 5 ص 156

⁽¹²⁰⁾ صحيح البخاري ج 5 ص 2083، آلوسي ج 2 ص 311، علي: المفصل ج 5 ص 59 - 161 - 167 -

174، صباغ المرأة ص 217، والفرع أول النتاج كانوا ينبجونه لطواغيتهم والعتيرة في رجب، صحيح البخاري ج 5 ص 2083.

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحمها

وإذا قتل منهم شريف ، أو مات بعثوا راكبا إلى قبائلهم ينعاه إليهم فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك⁽¹²¹⁾ وكان يغسل الميت قبل الدفن، ويطيب بالخطمي والاشنان⁽¹²²⁾ وأما قریش فكانت تضع الكافور مع الميت⁽¹²³⁾ وكل ذلك من العادات الجاهلية المتبعة.

وبعد أن يجهر الميت، يحمل في سرير على الأكتاف، أو في محفة، أو على الإبل، لإيصاله إلى القبر، وقد ورد أن السرير النعش قبل أن يحمل عليه الميت، فإذا حمل عليه فهو جنازة، على أننا وجدنا أن البدوي يحملون موتاهم بضم عود إلى عود⁽¹²⁴⁾. وأوصوا الميت بالألبيعة، والمقصود بذلك أن الميت وإن مات فإن ذكره تبقى بينهم، وهودائما معهم، فحسب اعتقادهم أن روح الميت حية لا تموت والغرض من ذلك استعظام موت الرجل الجليل، وكأنهم لا يصدقون أنه مات وقد حلفوا بموتاهم، فقالت قریش وحق أبي أووترية أبي أووترية جدك ونحو ذلك⁽¹²⁵⁾. وما زالت هذه العبارة سارية المفعول إلى اليوم.

وبالنسبة إلى الأكفان فحسب ما ورد عن تكفين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الحجاز كفنوا موتاهم بأثواب صحاريه - نسبة إلى صحار - ويرد حبرة⁽¹²⁶⁾، ولكن هناك من ذكر أنه كان لا يدفن الميت بملابسه، ويغطي رأسه، على أنه لا يستبعد أن يكونوا قد عرفوا الكفن. نستدل على ذلك من بيت شعر لامرئ القيس⁽¹²⁷⁾:

(121) التبريزي ديوان الحماسة ج 1 ص 328.

(122) لسان العرب مادة نعا، اللوسي ج 3 ص 13 ومعنى ينعاه أي يظهر خبر وفاته،

(123) لسان العرب مادة غسل، علي: المفصل ج 5 ص 156 - 157.

(124) ثعلب شرح ديوان زهير ص 15 علي: المفصل ج 5 ص 162 - 158

(125) تاج العروس مادة سرر، علي: المفصل ج 5 ص 157

(126) ابن هشام: السيرة ج 4 ص 313، أنساب الأشراف ج 1 ص 571 - 572

(127) ديوان امرؤ القيس ص 90، لسان العرب مادة كفن.

فأما تريني في رحالة جابر على حرج كالقمر تخفق أكفاني

وعند دفن الميت في قبره، يقوم من يذكر محاسنه، وأعماله، ويلحد في قبره لحدا، ثم يظهر حزنه، وحزن الناس عليه، ويوارى في حفرته ثم يهال التراب عليه، وينشد الشعر له.

وبالغ اليهود في الحجاز، وأيضا النصارى في ضرب القباب والأضرحة على قبور موتاهم، وفي تعظيم قبور أحبارهم وقسسهم، حتى تحولت قبورهم إلى أضرحة ومزارات تزار في المناسبات، ولا سيما عند أهل الحضر منهم وشمالى الحجاز. ولبس أهل الميت ملابس خاصة لإظهار الحزن والأسى وكان اللون الأبيض هو المفضل، وهو شعار الحزن في الحجاز⁽¹²⁸⁾.

أما حزن المرأة على زوجها فله صفات معينة عندهم، فقد كانت تحلق شعرها، وتمزق جيوبها، وتلطم خديها، وتعفر رأسها بالتراب والطين وتغمس قطنه من دمها، وتضعها على رأسها، وتخرج طرف قطنتها من خرق في قناعها ليعلم الناس أنها مصابة، ويسمى ذلك السقاب⁽¹²⁹⁾، وترفع صوتها بالنياحة وتمسك بنعلين، وتصفق بهما وجهها وصدرها ولمدة عام تمتنع عن الزينة والطيب امتناعا كاملا، ولا تمس ماء ولا تقلم ظفرا، ولا تزيل شعرا، ويمتنع الخطاب عن طلب يدها، وتدخل خفشا⁽¹³⁰⁾، وتلبس شر ثيابها، وتقضي فيه مدة حدادها، ولم يكن ورثة الزوج يرون أن من واجبهم النفقة عليها طيلة هذه الفترة.

وإذا ما انتهت عدتها تخرج من الخفش، وتعطى بعرة ترمي بها كلبا، وتذلك جسمها بدابة حمار أو شاة أو طائر ومعنى رميها البعرة أنها انتهت عدتها⁽¹³¹⁾، أو أنها

(128) علي: المنفصل ج 5 ص 172 لم يذكر مصدره

(129) لسان العرب مادة سق

(130) الصغير من بيوت إعراب، وقيل البيت الذليل القريب التسمك من الأرض لسان العرب مادة خفش، تاج

العروس مادة خفش،

(131) نهاية الأرب ج 3 ص 120، صبح الأعشى ج 1 ص 403، اللؤلؤ ج 2 ص 51، الحوي: المرأة في الشعر الجاهلي ص 221.

رمت عدتها رمي البعرة وقيل إشارة إلى أن الفعل الذي فعلته من التريص، والصبر على البلاء الذي كانت فيه، ولما انقض كان بمنزلة البعرة التي رمتها استحقاقا له وتعظيما لحق زوجها، بل ترميها على سبيل التفاؤل بعدم عودها إلى مثل ذلك، أو أن مقامها حول أهون عليها من بعرة ترمي بها كلبا أو غيره⁽¹³²⁾. وتعاود زينتها بعد ذلك، وكانت بعض نساء المتوفى يقمن تحت قباب يضربنها قرب قبر الميت ويستقبلن فيها من يأتي لزيارة قبره.

أما الزوج فإنه عند وفاتها، لا بد وأن يشعر بالأسى ولكن لا يجوز له أن يبدي عواطفه، ويعاب إذا زار قبرها، وقد يرثيها شعرا ونثرا، ويمتدح خصالها، إلا أنه لا يتقبل التعازي بها إلا إذا كانت أما لولده، وجرت العادة آنذاك بدفن المرأة على مقربة من زوجها⁽¹³³⁾.

2- ولادة أنثى:

كان العرب في ظل سيادة نظام الأبوة، يؤثرون البنين على البنات، وذلك لأن الذكر أصبح يشغل دورا رئيسيا في الاقتصاد، في حين تقلص دور المرأة في القطاع الاقتصادي وتركز على تربية الأطفال وتدبير الشؤون البيتية.

لذا فقد كان مولد الطفل الذكر عند العرب والبدو خاصة مبعث سرور وفرح، في حين كان مولد البنت مبعث غم وهم، لا سيما إذا كان الأب فقيرا وفي الشعر الجاهلي ما يعكس كدر الوالد الذي تولد له طفلة، فمثلا أبو حمزة الضبي وضعت له زوجته أنثى فهجرها، وأخذ يبيت عند جيرانه، فمر بخبائها يوما، وإذا هي ترقصها وتتغنى لابنتها قائلة:

ما لأبي حمزة لا يأتينا وهو في البيت الذي يلينا

⁽¹³²⁾ نهاية الأرب ج3 ص120، صبح الأعشى ج1 ص403، الألوسي ج2 ص51.

⁽¹³³⁾ نهاية الأرب ج3 ص120، صبح الأعشى ج1 ص403، علي: المفصل ج5 ص137، 174، صباغ: المرأة ص16، 2 نهاية الأرب ج3 ص120، صبح الأعشى ج1 ص403، علي: المفصل ج5 ص137 - 174، صباغ: المرأة ص216.

يغضب إن لم نأد البنينا والله ما أدلك في أيامنا

obeikandi.com

وانما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا

نبئت ما قد زرعوه فينا

فلما سمع أبو حمزة هذا القول غلبه حنان الأبوة فأسف وتاب إلى رشده، وولج الخباء، وقبل رأس امرأته وابنته وقال: ظلمتكما ورب الكعبة⁽¹³⁴⁾. ولقد صور القرآن الكريم في الكثير من آياته حالة الرجل النفسية إذا بشروه بولادة أنثى قال تعالى: "وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَنْهَىٰ مِنَ الْفَهْمِ مَنْ هُوَ مَا بَشَّرَهُ بِهِ أَحَدَهُمْ عَلَىٰ هَوًى أَمْ يَدُومُ فِي الْغَرَابِ إِلَّا هَاءَ مَا يَحْكُمُونَ"⁽¹³⁵⁾. ولعل بعضهم قد بالغ في بغضه للبنات عند ولادتهن إلى حد الوأد، أي قتل المولودة دون ذنب، وحرمانها من حق الحياة وهي جريمة بشعة أيا كانت مسوغات الوأد، قال تعالى: "وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ"⁽¹³⁶⁾ وقوله تعالى: "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْكُمْ" إِمَّا إِنْ خِفْتُمْ أُولَٰئِكَ مِنْ خَشْيَةِ إِمَارَةٍ فَقَدْ نَزَّلْنَاهُمْ إِمَارَتَكُمْ"⁽¹³⁷⁾ وقوله: "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمَارَةٍ فَقَدْ نَزَّلْنَاهُمْ إِمَارَتَكُمْ"⁽¹³⁸⁾.

ولعل أن بعض الحوادث قد وقعت مثل أسر الذراري والمجاعة عمد فيها البعض إلى وأد البنات. فيذكر أن أول من وأد بناته في الجاهلية قيس بن عاصم المنقري من تميم. وذلك عندما سبيت ابنته من قبل النعمان بن المنذر، فلما خيرت في البقاء عند سابيتها أو الذهاب م زوجها آثرت الأول على الثاني فنذر قيس أن يدس كل بنت تولد

(134) البيان والتبيين ج 1 ص 186، الألوسي ج 3 ص 50 حاشية، سالم ص 449، ترماني: الزواج عند العرب ص 220.

(135) سورة النحل الآية 58-59.

(136) سورة التكاوير: الآية 9.

(137) سورة الأنعام: الآية 151.

(138) سورة الإسراء: الآية 31.

له في التراب، فوآد بضع عشرة بنتا، فاقتدت به العرب، فكان كل سيد له بنت يئدها خوفا من الفضيحة ولحوق العار به⁽¹³⁹⁾ كما سلف ذكره.

وأرجع بعضهم منشأ الوآد إلى قبيلة ربيعة، وذلك أنه أغير عليهم فأسرت بنت لأمير لهم، فلما عقد الصلح، لم تشأ البنت العودة إلى بيت أبيها، واختارت من هي عنده وآثرته على أبيها، فغضب رئيس ربيعة لذلك، وسن لقومه الوآد ففعلوه غيرة منهم ومخافة أن يقع لهم بعد مثلما وقع، وقلدته بقية العرب حتى فشا بين القبائل. على أن البعض يرجع منشأ الوآد إلى كنده⁽¹⁴⁰⁾. وقد يجري الوآد بعد الولادة مباشرة، بل قد يكون عندما تصبح البنت سديسية⁽¹⁴¹⁾ فيطلب الوالد تطليب البنت وتزينها، ثم يأخذها معه فيدفعها في حفرة حضرها لها في الصحراء، ويهيل عليها التراب، وقد تبلغ به القسوة مبلغها فيطلب من الأم أن تفعل ذلك، فما هو السبب الذي يجعل الأم تفعل ذلك ؟

ربما يكون ذلك جزءا من التقليد الديني في تقديم عرب الجاهلية بناتهن أضحى للإلهة، وباعتبار أنهن بنات الله فيجب أن يعدن إليه متطلبات متزينات، وهذا سبب آخر من أسباب وأد البنات إضافة إلى أسباب اقتصادية واجتماعية ذكرناها فيما سبق.

وقد يتم الوآد بعد البلوغ، ذكر الاخباريون أن امرأة قيس بن عاصم ولدت بنتا في سفره، فدفعنها إلى أحوالها، فلما قدم زوجها من سفره أخبرته أنها ولدت ولدا ميتا. ومضت سنون حتى كبرت الصبية ويفعت، فزارت أمها يوما، ورآها قيس فأعجبته، وسأل عنها، فبكت أمها وقالت له: هذه ابنتك وقصت عليه حيلتها.

قال: "فأمسكت حتى اشتغلت عنه، ثم أخرجتها فحفرت لها حفرة فجعلتها فيها وأخذت أهيل عليها التراب، وهي تقول: يا أبت أمغطي أنت بالتراب ؟ أتركى أنت

(139) الأغاني ج 14 ص 71، نهاية الأرب ج 3 ص 127، صبح الأعشى ج 1 ص 404، الحوي: المرأة في الشعر

الجاهلي ص 234، سالم ص 449

(140) لسان العرب مادة واد، آلوسي ج 3 ص 42، الحوي: المرأة في الشعر الجاهلي ص 235.

(141) أتت عليها ست سنوات لسان العرب مادة سدس.

وحدي ومنصرف عني ؟ وجعلت اقدف عليها حتى واريثها وانقطع صوتها ، فما رحمت أحدا مما واريثه غيرها⁽¹⁴²⁾.

ولم يقتصر القتل على الإناث بل تعداهن إلى الذكور ، فكان بعض العرب يثدون أولادهم الذكور أيام المجاعة أي لعوامل اقتصادية ، أو يثدونهم وفاء لنذر أي لعوامل دينية وقد ورد في القرآن الكريم ما يؤيد ذلك قال تعالى : "وكذلك نذر لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم فذروهم وما يفترون"⁽¹⁴³⁾.

وكان الرجل في الجاهلية يحلف أحيانا لئن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم فقد نذر عبد المطلب انه متى رزق عشرة أولاد ذكور ورآهم رجالا أن ينحر أحدهم لله عند الكعبة ، فلما استكمل أولاده العدد هم بإنجاز ما وعد ، على زعم أهل الأخبار وأجال القداح بينهم ، فكان الذبح نصيب عبد الله ، فحماء أخواله بنو مخزوم وأشاروا إلى عبد المطلب أن يحكتم إلى كاهنة بني سعد ، فحكمت بالدية مائة بغير فداء لعبد الله⁽¹⁴⁴⁾.

ولكن قتل الأولاد الذكور عند الجاهليين كان محدود ، وهو أقل استعمالا من وأد البنات بكثير ، وقد مارسه بعض العرب في المجاعات ، ولأسباب دينية كما تبين من قصة إقدام عبد المطلب وأد ابنه لنذر أخذه على نفسه حسبما جاء في روايات الإخباريين وفي مكة جبل يقال له أبودلامة كانت قريش تثد البنات فيه⁽¹⁴⁵⁾ من كل ما تقدم نرى أن ولادة الأنثى هم وحزن لذلك فكروا بوأدها خوفا من وقوع الذراري في الأسر بأيدي المغيرين المغتصبين ، ولحقوق العار بهم ، والفضيحة من أجلهن أولعوامل دينية وفاء لنذر أو إرضاء للآلهة ، أولعوامل مرضية فكان منهم من يثد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء تشاؤماً وكان يفعل ذلك قليل منهم ،

(142) الأغاني ج 14 ص 69-70

(143) سورة الأنعام: الآية 137

(144) لسان العرب مادة دهم ، صباغ: المرأة ص 231

(145) لسان العرب مادة وأد ، علي: المفضل ج 5 ص 98.

وكان من وسائل الوأد أن يحضر حفرة لها ثم تدس فيها ويهال التراب عليها أو عن طريق رميها من جبل أو عن طريق الوأد الخفي⁽¹⁴⁶⁾ وهو هجر الزوجة لثلا تتجب له أولادا.

والواقع أن الوأد لم يكن عرفا عاما في قبائل العرب قاطبة على نحو ما صورته لنا بعض الإخباريين، وإنما كانت تمارسه بعض القبائل، وحتى هذه القبائل نفسها لم يفسد الوأد في أفرادها جميعا، وإلا فكيف يستمتعن بالحياة وينجبن الأبناء؟ وكيف نجا من الوأد آلاف من النسوة اللاتي أدركن الإسلام وعددن صحابيات، ولعل في روايات أهل الأخبار ما يقيم الدليل على ذلك، فقد ذكروا أن بعض سادات بني تميم كانوا يعيبون وأد البنات، وينقذونهن من جريمة الوأد البشعة، واشتهر بذلك صعصعة بن ناجية جد الفرزدق حتى سمي (محيي المؤذات) فقد مر يوما برجل يحفر حفرة ليئد ابنته وامراته تبكي، فسأل الرجل عن سبب عمله فأجابه بأنه الفقر، فعرض عليه أن يستبقي ابنته، ويمنحه ناقتين عشرا وين يتبعهما أولادهما، ليعيشوا من ألبانهما، فقبل الرجل، فأعطاه صعصعة ناقتين وجملا، ثم قال في نفسه: أن هذه لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب، فجعل على نفسه ألا يسمع بمؤودة إلا فداها، فجاء الإسلام وقد فدى ستا وتسعين مؤودة. وقيل ثلاثمائة وستين وقيل أربعمائة على خلاف بالعدد⁽¹⁴⁷⁾.

وذكر أن زيد بن عمرو بن نفيل كان أيضا يحيي المؤذات يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته أنا أكفيك موعونتها ولا تقتلها فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك موعونتها، والإحياء هنا مجاز، والمراد بإحيائها إبقائها⁽¹⁴⁸⁾.

⁽¹⁴⁶⁾ الأغاني ج 21 ص 276 - 277، نهاية الأرب ج 3 ص 126 - 127، علي: المفصل ج 5 ص 91، صباغ: المرأة ص 234، دلوج 1 ص 198.

⁽¹⁴⁷⁾ الأغاني ج 1 ص 276 - 277، نهاية الأرب ج 3 ص 126 - 127، علي: المفصل ج 5 ص 91، صباغ: المرأة 234، دلوج 1 ص 198.

⁽¹⁴⁸⁾ صحيح البخاري ج 4، ص 1392، آلوسي ج 3 ص 45.